ولذلك أوضح لنا الحق سبحانه أن العمل هو كُلُّ فعل متعلق بالجوارح ؛ وأخذ القول شقاً بمفرده ؛ وأخذتْ أفعال الجوارح الشِّقَّ الآخر ؛ لأن عمل بقية الجوارح يدخل فى إطار ما سمع من منهج الله .

ولذلك تجمع الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها كل العمل من قَوْل وفعل :

﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝١٠ ﴾ [الرعد]

ومَنْ يستخفى بالليل لابد أنه يُدبِّر أمراً ؛ كأن يريد أن يتسمَّع ما وراء كل حركة ؛ أو ينظر ما يمكن أنْ يشاهده ، وكذلك مَنْ يبرز ويظهر فى النهار فالله عالم به .

وكان على الكفار أن ينتبهوا لأمر عجيب كانوا يُسِرُّونه فى أنفسهم ؛ لحظة أنْ حكى الله ؛ فقال :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ۝٨ ﴾ [المجادلة]

فكيف علِمَ الله ذلك لولا أنه يعلم السِّرَّ وأخْفَى ؟

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ[1] مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١ ﴾

(١) التعقب : العود بعد البدء . وقال أبو الهيثم : سميت الملائكة « مُعقِّبات » لأنهن عادت مرة بعد مرة . [تفسير القرطبي ٥/٣٦٢٦] .

وكلمة (له) تفيد النفعية ، فإذا قلت « لك كذا » فهى عكس أن نقول « عليك كذا » . وحين يقول سبحانه :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ .. (١١) ﴾ [الرعد]

فكأنَّ المُعقِّبات لصالح الإنسان . و « مُعقِّبات » جمع مؤنث ، والمفرد « مُعقِّبة » ، أى : أن للحق سبحانه وتعالى ملائكة يتناوبون على حراسة الإنسان وحِفْظه ليلاً ونهاراً من الأشياء التى لا يمكن الاحتراز منها .

والمَثَلُ هو تلك الإحصاءات التى خرجت عن البشر الذين تلدغهم الثعابين ، فقد ثبت أنها لا تلدغهم وهم نائمون ؛ بل فى أثناء صَحْوتهم ؛ أى : ساعةَ يكونون فى سِتْر النوم فهناك ما يحفظهم ؛ أما فى اليقظة فقد يتصرَّف الإنسان بطَيْشٍ وغَفْلة فتلدغه الأفعى .

ونحن نقول فى أمثالنا الشعبية : « العين عليها حارس » ؛ ونلحظ كثيراً من الأحداث التى تبدو لنا غريبة كأنْ يسقط طفل من نافذة دور عُلوى ؛ فلا يُصاب بسوء ؛ لأن الحق سبحانه شاء أن تحفظه الملائكة المُعقِّبات من السُّوء ؛ لأن مهمة الحَفَظة أنْ يحفظوا الإنسان من كُلِّ سوء .

وهكذا نرى أن الحق سبحانه قد أعدَّ للإنسان الكونَ قبل أن يخلقه ليستخلفه فيه ؛ أعدَّ السماوات وأعدَّ الأرض ؛ وسَخَّر الشمس والقمر ؛ وأخرج الثمرات ؛ وجعل الليل يَغْشَى النهارَ .

كُلُّ ذلك أعدَّه سبحانه للخليفة قبل أن يوجد الخليفة ؛ وهو سبحانه قَيُّوم على هذا الخليفة ؛ فيصونه أيضاً بعد الخَلْق ، ولا يَدَعُه لمقومات نفسه ليدافع عنها فيما لا يستطيع الدفاع عنها ، ويُكلِّف الله الملائكة المُعقِّبات بذلك .

وقد ينصرف معنى المُعقِّبات إلى الملائكة الذين يتعقَّبون أفعال الإنسان وكتابة حسناته وكتابة سيئاته ، ويمكن أن يقوما بالعملين معاً ؛ حِفْظه وكتابة أعماله ، فإن كتبوا له الحسنات فهذا لصالحه .

ولقائل أن يقول : ولكنهم سيكتبون السيئات ؛ وهذه على الإنسان وليست له .

وأقول : لا ؛ ويَحْسُن أن نفهم جيداً عن المُشرِّع الأعلى ؛ ونعلم أن الإنسان إذا ما عرف أن السيئة ستُحْسَب عليه وتُحْصى ؛ وتُكتب ؛ يمسك كتابه ليقرأه ؛ فلسوف يبتعد عن فعل السيئات .

وهكذا يكون الأمر في مصلحته ، مَثَلُه مَثَلُ الطالب الذي يرى المراقب في لجنة الامتحان ، فلا يكرهه ؛ لأنه يحمي حَقَّه في الحصول على التقدير الصحيح ؛ بدلاً من أن يَغُشَّ غيره ، فيأخذ فرصة أكبر منه في التقدير والنجاح ؛ فضلاً عن أن كل الطلبة يعلمون أن وجود المراقب اليَقِظ هو دافعٌ لهم للمُذَاكرة .

ولذلك أقول دائماً : إياك أنْ تكره أن يكون لك أعداء ؛ لأن الذي يَغُرُّ الإنسانَ في سلوكه هو نفاقُ أصحابه له ، أما عدوك فهو يفتح عينيه عليك طوال الوقت ؛ ولذلك فأنت تحذر أن تقع في الخطأ .

وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

عِداي لَهُمْ فَضْل عليَّ ومَيْزَةٌ ... فَتعدَّى لَهُم شُكْر عَلى نَفْعهم لِياَ

فَهم كَالدَّواءِ والشِّفَاءِ لِمُزْمنٍ ... فَلا أبعدَ الرحْمَانُ عنِّي الأعَادِيَا

هُمْ بَحثُوا عَنْ زَلَّتي فاجْتنبْتُهَا ... فَأصبَحتُ مِمَّا ذله العربُ خَالِيَا

إذن : فكتابة الحسنات والسيئات هى مسألةٌ لصالح الإنسان ؛ وحين يتَعاقبُونَ على الإنسان ؛ فكأنهم يصنعون دَوْرِيَّاتٍ لحماية الفرد ؛ ولذلك نجد رسول الله ﷺ يقول :

« يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر(١) ؛ فيصعد إليه الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ـ وهو أعلم بكم ـ : كيف تركتُم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهُمْ يصلون ، وتركناهم وهُمْ يُصلُّون »(٢) .

وكأن الملائكة دوريات .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : أن ملائكة الليل يشهدون ؛ ومعهم ملائكة النهار(٣) .

وحديث رسول الله ﷺ ملحوظ فيه الوقت الزمنى للحركة الإنسانية ؛ فَكُلُّ حركات الإنسان وعمله يكون من الصبح إلى

(١) قال النووى فى شرحه على صحيح مسلم (المجلد ٣ / ص ١٣٩) طبعة دار القلم ـ بيروت ١٩٨٧ : « أما اجتماعهم فى الفجر والعصر فهو من لطف الله تعالى بعباده المؤمنين وتكرمة لهم أن جعل اجتماع الملائكة عندهم ومفارقتهم لهم فى أوقات عباداتهم واجتماعهم على طاعة ربهم ، فتكون شهادتهم لهم بما شاهدوه من الخير » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٣٢) . والبخارى فى صحيحه (٥٥٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٤٧٤) ، والترمذى فى سننه (٣١٣٥) ، وابن ماجه فى سننه (٦٧٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال فى هذه الآية : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء] « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » .

العصر ، ثم يرتاح الإنسان غالباً من بعد ذلك ؛ ثم ينام .

والمُعقِّبات يَكُنَّ من بين يدى الإنسان ومن خلفه ؛ و (من بين يديه) من أجل الرصد ، ولذلك وجدنا أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ أثناء الهجرة النبوية كان يسير بعض الوقت أمام النبى ﷺ ؛ وكان يسير البعض الآخر خلف النبى ﷺ .

كان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يتقدم ليرقب : هل هناك مَنْ يرصد الرسول أم لا ؟ ثم يتراجع إلى الخلف ليمسح كل المكان بنظره ليرقب : أهناك مَنْ يتتبعهما ؟ وهكذا حرص أبو بكر على أنْ يحمي الرسول ﷺ من الرَّصد أو التربُّص[1] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ..﴿١١﴾﴾

[الرعد]

والسطحىّ يقول : إن تلك الملائكة يحفظون الإنسان من الأمر المراد به من الله .

ونقول : إن الله لم يُنزِل الملائكة ليعارضوا قَدَره ؛ وهذا الحفظ لا يكون من ذات الإنسان لنفسه ، أو من الملائكة ضد قَدَر الله ؛ والمعنى هنا ينصرف إلى أن الملائكة إنما يحفظون الإنسان بأمر الله .

---

(١) أخرج البيهقى فى سننه (٤٧٦/٢) أن عمر بن الخطاب قال : « والله لليلة من أبى بكر خير من آل عمر ، وليوم من أبى بكر خير من آل عمر ، لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر رضى الله عنه ، فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه ، حتى فطن له رسول الله ﷺ ، فقال : « يا أبا بكر ما لك تمشى ساعة بين يدى وساعة خلفى ؟ فقال : يا رسول الله أذكر الطلب ، فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك » .

ولذلك نجد فى القرآن قول الحق سبحانه :

﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا .. (٢٥) ﴾ [نوح]

أى : بسبب خطيئتهم أغرقوا ، فإياك أنْ تظن أنَّ الملائكة يحفظون الإنسان من قَدَر الله ؛ لأننا نعلم أن الحق سبحانه إذا أراد أمراً فلا رَادَّ له .

ويتابع سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ..(١١) ﴾ [الرعد]

وهو سبحانه الذى خلق الكون الواسع بكل أجناسه ؛ جماداً ونباتاً وحيواناً وأفلاكاً وأملاكاً ؛ وجعل كل ذلك مُسخَّراً للإنسان ؛ ثم يحفظ الحق سبحانه الإنسان ويصونه بقيوميته .

وقد يقول قائل : ولماذا إذن تحدث الابتلاءات لبعض من الناس ؛ رغم أنه سبحانه قد قال إنه يحفظهم ؟

ونقول : إن تلك الابتلاءات إنما تجرى إذا ما غَيَّر البشر من منهج الله ؛ لأن الصيانة تُقوِّم ما قام بالمنهج .

واقرءوا قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً[1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(١١٢) ﴾ [النحل]

---

(١) رَغُد العيش : اتسع وطاب . وقوله تعالى : ﴿ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا.. (٣٥) ﴾ [البقرة] أى : أكلاً طيباً مُوسَّعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

وهكذا نعلم أن الصيانة للإنسان والحفظ له والإمداد له من قبل أن يُولَد ؛ كُلُّ ذلك لن يرجع عنه الله ما دام الإنسان يمشى على صراط مستقيم ؛ لكن إذا ما حَادَ الإنسان عن الصراط المستقيم ؛ فيلفته الله ببعض من العِبَر والعظات ليعود إلى الصراط المستقيم .

والتغيير الذى يُجرِيه الله على البشر حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ؛ يشمل الإمدادات الفرعية ؛ أما الإمدادات الأصلية فلا يمنعها عنهم ؛ مثل الشمس والقمر والنجوم والهواء ؛ ولم يمنع الأرض أن تُخرِج لهم المياه .

ويصيبهم فى الأشياء التى من الممكن أن يسير الكون فى انتظامه رغم حدوثها ؛ كالمصيبة فى المال أو المصيبة فى النفس ؛ ويظل الكون على مسيرته المنتظمة .

ولهذا نجد أحد الفلاسفة وقد قال : « إن الله لا يتغير من أجلكم ؛ ولكن يجب أن تتغيروا أنتم من أجل الله » .

وسبق أن قال الحق سبحانه :

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه]

وهو القائل سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا[1] .. (١٢٤) ﴾ [طه]

---

(١) الضنك : الضيق من كل شيء . والضنك : ضيق العيش . وقال الليث في تفسيره : أكل ما لم يكن من حلال فهو ضنك وإن كان مُوسَّعاً عليه ، وقد ضنك عيشه . [لسان العرب ـ مادة : ضنك] .

وأنت ترى فى عالمنا المعاصر مجتمعات مُتْرَفة ؛ نستورد منهم أدوات الحضارة المعاصرة ؛ لكنهم يعيشون فى الضَّنْك النفسى البالغ ؛ وهذا ما يُثبت أن الثراءَ المادى بالنقود أو أدوات الحضارة ؛ لا يُحقِّق للإنسان التوازن النفسى أو السعادة ؛ وينطبق عليهم ما قاله أمير الشعراء أحمد شوقى[1] رحمه الله :

ليسَ الحملُ مَا أطَاقَ الظَّهْرُ   مَا الحملُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْر

فقد يكون الثراء المادى فى ظَنِّ البعض هو الحُلْم ؛ فيجنح الإنسان إلى الطريق غير السَّوى بما فيه من عُمولات ؛ وعدم أمانة ؛ ورغم النقود التى قد يكتنزها هذا الإنسان ، إلا أن الأمراض النفسية أو الأمراض العضوية تفتكُ به .

وهكذا نجد الحق سبحانه وهو يُغيِّر ولا يتغيَّر ؛ فهو المُغيِّر لا المُتغيِّر .

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]

يُوضِّح لنا أن أعمال الجوارح ناشئةٌ من نَبْعِ نفس تُحرِّك الجوارح ؛ وحين تصلح النفس ؛ تصبح الجوارح مستقيمة ؛ وحين تفسد النفس تصير الجوارح غير مستقيمة .

---

(١) أحمد شوقى ، أشهر شعراء العصر ، يلقب بأمير الشعراء ، ولد بالقاهرة عام ١٨٦٨ م ، وتوفى بها عام ١٩٣٢ م عن ٦٤ عاماً . نشأ فى ظل البيت المالك ، درس الحقوق فى فرنسا واطلع على الأدب الفرنسى . تنوع إنتاجه بين نظم الشعر والقصص الشعرية . [الأعلام للزركلى ١/١٣٦] .

فالحق سبحانه وتعالى أخضع كل الجوارح لمُرادَات النفس ، فلو كانت النفسُ مخالفةً لمنهج الله ؛ فاللسان خاضع لها ؛ ولا ينطق رغم إرادته بالتوحيد ؛ لأن النفسَ التى تديره مخالفةٌ للإيمان .

والمَثَل : هم هؤلاء الذين نسبوا الرسل الذين اختارهم الله ؛ فادَّعَوْا أنهم أبناءُ الله ؛ وسبحانه مُنَزَّهٌ عن ذلك ؛ أما إذا كانت النفس مؤمنةً فهى تأمرُ اللسان أن يقول كلمة التوحيد ؛ ويسعد هو بذلك ؛ لكنه فى الحالتين لا يعصى النفس التى سَخَّره لها الله .

وهكذا تكون الجوارح مُنفعلَة لإرادة صاحبها ، ولا تنحلُّ الإرادة البشرية عن الجوارح إلا حين يشاء الله ذلك فى اليوم الآخر ، وفى الموقف الحق .

ولحظتَها لن يستطيع أحد أنْ يسيطر على جوارحه ؛ لأن المُلْك يومئذ للواحد القهار ؛ وسقطتْ ولاية الفَرْد على جوارحه ؛ وتشهد هذه الجوارح على صاحبها بما فعلتْه وَقْتَ أنْ كانت مقهورة لإرادته .

وهكذا نعلم أن التغيير كله فى النفس التى تدير الجوارح .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ .. (١١) ﴾ [الرعد]

يَدلُّنا أنه سبحانه لا يتدخَّل إلا إذا عَنَّت[1] الأمور ؛ وفسد كل المجتمع ؛ واختفتْ النفس اللوَّامة من هذا المجتمع ؛ واختفى مَنْ

(١) عَنَّ الشيء يعن : ظهر أمامك . [لسان العرب ـ مادة : عنن] والمقصود أن تظهر الفواحش والمعاصى فى المجتمع وتفشو .

يَقْدِرون على الرَّدْع - ولو بالكلمة - من هذا المجتمع ؛ هنا يتدخل الحق سبحانه .

وحين يُغيِّر الناس ما بأنفسهم ، ويُصحِّحون إطلاق الإرادة على الجوارح ؛ فتنصلح أعمالهم ؛ وإياكم أنْ تظنوا أنَّ هناك شيئاً يتأبَّى على الله .

ولذلك يتابع سبحانه في نفس الآية :

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ ..(١١) ﴾ [الرعد]

وعليكم أن تأخذوا الأمرين معاً :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. (١١) ﴾ [الرعد]

و ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ ..(١١) ﴾ [الرعد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾ [الرعد]

إياك أن تفهم أن هناك سلطة تحُول دون أن يُغيِّر الله ما يريد تغييره ؛ ولن يجدوا صَدْراً حنُوناً آخر يُربِّت عليهم إذا ما أراد الله بهم السُّوء ، فليس هناك وَالٍ آخر يأخذهم من الله ويتولَّى شئونهم وأمورهم من جَلْبِ الخير ودَفْعِ الشر .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾ [الرعد]

وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن ظاهرة فى الكون لها وجهان وتُسْتقبل استقبالين ؛ أحدهما : سَارٌ ، والآخر : مُزْعِج ؛ سواء فى النفس الواحدة أو فى الجماعة الواحدة .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ ﴾

وكُلُّنا يعرف البَرْق ، ونحن نستقبله بالخوف مما يُزعِج وبالطمع فيما يُحَبّ ويُرْغَب ، فساعةَ يأتى البرق فنحن نخاف من الصواعق ؛ لأن الصواعقَ عادةً تأتى بعد البَرْق ؛ أو تأتى السحابات المُمْطِرة .

وهكذا يأتى الخَوْف والطَّمَع من الظاهرة الواحدة . أو : أنْ يكون الخوف لقوم ؛ والرجاء والطمع لقوم آخرين .

والمثل الذى أضربه لذلك دائماً هو قول أحد المقاتلين العرب وصف سيفه بأنه « فَتْح لأحبابه ، وحَتْف[1] لأعدائه » .

والمثل الآخر الذى أضربه ما رواه لنا أمير بلدة اسمها « الشريعة » وهى تقع بين الطائف ومكة ؛ وقد حدثنا أمير الشريعة عام ١٩٥٣ عن امرأة صالحة تحفظ القرآن ؛ اسمها « آمنة » .

هذه المرأة كان لها بنتان ؛ تزوَّجتا ؛ واخذ كُلُّ زَوْجٍ زوجته إلى

(١) الحتف : الموت . وجمعه : حُتُوف . والحتف : الهلاك . [لسان العرب ـ مادة : حتف] .

مَحَلِّ إقـامته ؛ وكـان أحدُ زَوْجَى البنتـين يعمل فى الزراعـة ؛ والآخر يعمل بصناعة « الشُرُك[1] » . وقالت آمنة لزوجهـا : ألاَ تذهب لمعرفة أحوال البنتـين ؟ فذهب الرجل لمـعرفة أحوال البـنتين ، فكان أول مَنْ لقى فى رحلته هـى ابنته المتـزوجة ممَّنْ يحـرث ويبذر ، فقـال لها : كيف حالك وحال زوجك وحال الدنيا معك أنت وزوجك ؟

قالت : يا أبت ، أنا مـعه على خيـر ، وهو معى على خيـر ، وأما حال الدنيا ؛ فَـادْعُ لنا الله أنْ يُنزل المطر ؛ لأننا حرثنا الأرض وبذرْنَا البذور ؛ وفى انتظار رَىِّ السماء .

فرفع الأب يديه إلى السماء وقال : اللهم إنِّى أسألك الغَيْث لها .

وذهب إلى الأخـرى ؛ وقـال لهـا : مـا حـالك ؟ ومـا حـال زوجك ؟ فقالت : خير ، وأرجـوك يا أبى أن تدعوَ لنا الله أنْ يمنع المطر ؛ لأننا قد صنعنا الشِّرَاك من الطين ؛ ولو أمطرتْ لَفسدت الشُرُك ، فَدَعا لها .

وعاد إلى امرأته التى سـألته عن حال البنتين ؛ فبـدا عليه الضيق وقال : هى سَنة سيـئة على واحدة منهما ، وروى لهـا حال البنتين ؛ وأضـاف : ستكون سنة مُرْهِقة لواحدة منهما .

فـقـالـت له آمنة : لو صـبــرتَ ؛ لَقُلْتُ لك : إن مـا تقــوله قـد لا يتحقق ؛ وسبحانه قادر على ذلك .

قال لها : ونعم بالله ، قولى لى كيف ؟ فقالت آمنة : ألم تقرأ قول الله :

---

(١) الشُرُك : جمع شَرَك ، وهو حبائل الصائد ، وكذلك ما ينصب للطير . [لسان العرب ـ مادة : شرك] .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي[1] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا[2] فَتَرَى الْوَدْقَ[3] يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ[4] فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ .. (٤٣) ﴾ [النور]

فسجد الرجل لله شكراً أنْ رزقه بزوج تُعينه على أمر دينه ، ودعا : اللهم اصْرِف عن صاحب الشِّراكِ المطر ؛ وأفِضْ بالمطر على صاحب الحَرْث . وقد كان .

وهذا المثل يوضح جيداً معنى الخوف والطمع عند رؤية الرعد :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا .. (١٢) ﴾ [الرعد]

إما من النفس الواحدة بأن يخافَ الإنسانُ من الصواعق ، ويطمع في نزول المطر ، أو من متقابلين ؛ واحد ينفعه هذا ؛ وواحد يضره هذا .

ويضيف الحق سبحانه :

﴿ وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) ﴾ [الرعد]

---

(١) أزجاه : ساقه برفق . وقال تعالى عن السفن : ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ .. (٦٦) ﴾ [الإسراء] أي : يدفعها ويُسيِّرها برفق فوق الماء . [القاموس القويم ١/ ٢٨٤] .

(٢) الركام : السحاب المتراكم بعضه فوق بعض . [لسان العرب ـ مادة : ركم] .

(٣) الودق : المطر شديده وهيِّنه . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ .. (٤٣) ﴾ [النور] أي : المطر يخرج من خلال السحاب المتراكم في السماء . [القاموس القويم ٢/ ٣٢٧] .

(٤) البرد : حبات صغار من الثلج تسقط مع المطر أحياناً . [القاموس القويم ١/ ٦٢] .

ونحن نعلم أن السحاب هو الغَيْم المُتَراكم ؛ ويكون ثقيلاً حين يكون مُعَبئاً ؛ وهو عكس السحاب الخفيف الذى يبدو كَنُتَفِ[1] القطن .

ويُقال عند العرب : « لا تستبطىء الخَيْل ؛ لأن أبطأ الدِّلاء فَيْضاً املؤها ، وأثقلَ السحابِ مَشْياً أَحْفَلُهَا »[2] .

فحين تنزل الدَّلْو فى البئر ؛ وترفعه ؛ فالدَّلْو المَلآن هو الذى يُرهقك حين تشدُّه من البئر ؛ أما الدلو الفارغ فهو خفيفٌ لحظة جَذْبه خارج البئر ؛ وكذلك السحاب الثِّقَال تكون بطيئة لِمَا تحمله من ماء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ[3] ﴿١٣﴾ ﴾

وسبق أن جاء الحق سبحانه بذكر البرق وهو ضوئىٌّ ؛ وهنا يأتى بالرعد وهو صوتىٌّ ، ونحن نعرف أن سرعة الضوء أسرع من سرعة الصوت ؛ ولذلك جاء بالبرق أولاً ، ثم جاء بالرعد من بعد ذلك .

وحين يسمع أحدُ العامةِ واحداً لا يعجبه كلامه ؛ يقول له

(١) النتف : جمع نُتْفة ، وهو ما نتفْته بأصابعك من نَبْت أو غيره . [لسان العرب - مادة : نتف] .

(٢) الحَفْل : اجتماع الماء فى مَحْفله . مَحْفل الماء : مُجْتمعه . وحفلت السماء : اشتد مطرها . [لسان العرب - مادة : حفل] .

(٣) المحال من الله : العقاب على الكيد والتدبير المحكم المتين ، فهم يجادلون ويكيدون لإبطال الدين والله شديد العقاب لهم على هذه المجادلة الباطلة ، وهو قوى يُحكم التدبير لإبطال كيدهم وإفساد تدبيرهم . [القاموس القويم ٢/٢١٨] .

« سـمعت الـرعد » ؛ أى : يطلب له أنْ يـسمع الصـوت المـزعج الذى يُتعب مَنْ يسمعه . ولنا أن ننتبه أن المُزْعجات فى الكون إذا ما ذكرت مُسَـبِّحة لربهـا فلا تنزعج منها أبـداً ، ولا تظن أنها نغمـة نَشَازٌ فى الكون ، بل هى نغمة تمتزج ببقية أنغام الكون .

ونحن نفهم أن التسبيح للعاقل القادر على الكلام ، ولكن هذا عند الإنسان ؛ لأن الذى خلق الكائنات كلها علَّمها كـيف تتفاهم ، مثلما علَّم الإنسان كيف يتفاهم مع بنى جنسه ؛ وكذلك علَّم كل جنس لغته .

وكلنا نقرأ فى القرآن ماذا قالت النملة حين رأتْ جنودَ سليمان :

﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل]

وقد سمعها سليمـان عليه السلام ؛ لأن الله علَّمه مَنْطق تلك اللغات ، ونحن نعلم أن الحق سبحانه علَّم سليمان منطق الطير ، قال تعالى :

﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦) ﴾ [النمل]

ألم يتخـاطب سليمان عليه الـسلام مع الهدهد وتكلَّم معـه ؟ بعد أن فَكَّ سليمان بتعليم الله له شَفْرة حديث الهدهد ؛ وقال الهدهد لسليمان :

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

إذن : فكُلُّ شىء له لغة يتفاهم بها لقضاء مصالحه ، ومَنْ يفيض الله عليه من أسرار خَلْقه يُسْمعه هذه اللغات ، وقد فاض الحقُّ سبحانه على سليمان بذلك ، ففهم لغةَ الطير وتكلَّم بها مع الهدهد ؛ وقال له :

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [النمل]

وهكذا عرفنا بقصة سليمان وبلقيس ؛ وكيف فَهِم سليمان مَنْطق الطير وتكلَّم بها مع الهدهد ؟ وهكذا علمنا كيف يتعلَّم الإنسان لغات متعددة ؛ فحين يذهب إنسان إلى مجتمع آخر ويبقى به مُدَّة ؛ فهو يتعلم لغة ذلك المجتمع ، ويمكن للإنسان أن يتعلم أكثر من لغة .

وقد عرض الحق سبحانه مسألة وجود لغات للكائنات في قصة النملة وقصة الهدهد مع سليمان ؛ وهما من المرتبة التالية للبشر ، ويعرض الحق سبحانه أيضاً قضية وجود لغة لكل كائن من مخلوقاته في قوله :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

وكأن الجبال تفهم تسبيح داود وتُردِّده من خَلْفه .

أيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ[1] (١٩) ﴾ [ص]

وكذلك يخاطب الله الأرض والسماء ، فيقول :

﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا .. (١١) ﴾ [فصلت]

فيمتثلان لأمره :

﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) ﴾ [فصلت]

---

(١) الأوّاب : المسبح . أوبي معه : سبِّحي معه ورجِّعي التسبيح . والأوّاب : صيغة مبالغة أي كثير الرجوع إلى الله تعالى . [لسان العرب ـ مادة : أوب ، والقاموس القويم ١/ ٤٢] .

وهكذا نعلم أن لكل جنس لغةً يتفاهم بها ، ونحن نلحظ أن لكل نوع من الحيوانات صَوْتاً يختلف من نوع إلى آخر ، ويدرس العلماء الآن لُغةَ الأسماك ، ويحاولون أنْ يضعوا لها مُعْجماً .

إذن : فساعة تسمع :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ..(٤٤) ﴾ [الإسراء]

فافهم أن ما من كائن إلا وله لغة ، وهو يُسبِّح بها الخالق الأكرم[1] .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

مثلما لا يفقه جاهل بالإنجليزية لغة الإنجليز .

وقال البعض : إن المُرَاد هنا هو تسبيح الدلالة[2] على الخالق ؛ وقد حكم سبحانه بأننا لا نستطيع فَهْم تسبيح الدلالة .

ولكني أقول : إن العلم المعاصر قد توصَّل إلى دراسة لغات الكائنات وأثبتها ؛ وعلى ذلك يكون التسبيح من الكائنات بالنُّطْق والتفاهم بين مُتكلِّم وسامع ، بل ولتلك الكائنات عواطف أيضاً .

---

(١) عن أنس رضي الله عنه قال : « دخل رسول الله ﷺ على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم : « اركبوها سالمة ، ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق فرُبَّ مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً لله منه » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٣٩ ، ٤٤٠) وابن حبان (٢٠٠٣ ـ موارد الظمآن) .

(٢) وكما تطلق الدلالة على تسبيح الخالق ، فأنت عندما ترى نعمة إبداعية تسبح الله في حين أن كل مخلوق يسبح بلغته الخاصة التي لا تستطيع فقهها ، فيجتمع تسبيحان الرائي لإبداع الخالق وتسبيح المرئي بلغته [لسان اللسان مادة دل ص ٤١٧ جـ ١] .

ونحن نرى العلماء فى عصرنا يدرسون عواطف الشجر تجاه مَنْ يسقيه من البشر ، وهناك تجربة تتحدث عن قياس العلماء لذبذبة النبات أثناء ريِّه بواسطة مُزارع مسئول عنه ؛ ثم مات للرجل ؛ فقاسوا ذبذبة تلك النباتات ؛ فوجدوها ذبذبة مضطربة ؛ وكأن تلك النباتات قد حزنتْ على مَنْ كان يعتنى بها ؛ وهكذا توصَّل العلماء إلى معرفة أن النباتات لها عواطف .

وقد بيَّن لنا الحق سبحانه أن الجمادات لها أيضاً عواطف ؛ بدليل قوله عن قوم فرعون :

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ..(٢٩) ﴾ [الدخان]

فالسماء والأرض قد استراحتا لذهاب هؤلاء الأشرار عن الأرض ، فالسماوات والأرض ملتزمتان مع الكون التزاماً لا تخرج به عن مُرادات الله ، وحين يأتى كافر ليصنع بكفره نشازاً مع الكون ؛ فهى تفرح عند اختفائه ولا تحزن عليه .

وما دامت السماء والأرض لا تبكيان على الكافر عند رحيله ؛ فلابد أنهما تفرحان عند هذا الرحيل ؛ ولا بُدَّ أنهما تبكيان عند رحيل المؤمن[1] .

ولذلك نجد قَوْل الإمام على كرم الله وجهه : إذا مات ابن آدم بكى عليه موضعان ؛ موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض ؛ وأما

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (١٤٢/٤) قول مجاهد فى تفسير آية الدخان ٢٩ : « ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً . قال : فقلت له : أتبكى الأرض ؟ فقال : أتعجب ؟ وما للأرض لا تبكى على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود ؟ وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوىٌّ كدوىِّ النحل » .

موضعه في الأرض فَموضِع مُصَلاَّه ؛ وأما موضعه في السماء فَمصْعَدُ عمله »[(١)] .

وهكذا نجد أن معنى قول الحق سبحانه :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ..(١٣) ﴾ [الرعد]

أي : يُنزِّه الرعد ويُمجِّد اسم الحق ـ تبارك وتعالى ـ تسبيحاً مصحوباً بالحمد .

ونحن حين نُنزِّه ذات الله عن أن تكون مثل بقية الذوات ، وحين ننزه فعْل الله عن أن يكون كأفعال غيره سبحانه ، وحين ننزه صفات الله عن أنَ تكون كالصفات ، فلا بد أن يكون ذلك مصحوباً بالحمد له سبحانه ؛ لأنه مُنزَّه عن كل تلك الأغيار ، وعلينا أنْ نُسرَّ من أنه مُنزَّه.

ويقول تعالى :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ..(١٣) ﴾ [الرعد]

ولقائل أنْ يتساءل : كيف تخاف الملائكة من الله ؟ وهم الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

وأقول : إن الملائكة يخافون الله خيفة المَهابة ، وخيفة الجلال . ونحن نرى في حياتنا مَنْ يحب رئيسه أو قائده ؛ فيكون خوفه مَهَابة ؛ فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى الذي تُحبه ملائكته وتَهاب جلاله وكماله ، صحيح أن الملائكة مقهورون ، لكنهم يخافون ربَّهم من فوقهم.

وساعة تسمع الملائكةُ الرعدَ فهم لا يخافون على أنفسهم ؛

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (١٤٢/٤) وعزاه لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأورد أيضاً نحوه عن ابن عباس .

ولكنهم يخافون على الناس ؛ لأنهم حفظة عليهم ؛ فالملائكة تعى مهمتها كحفظة على البشر ؛ وتخشى أن يربكهم أىُّ أمر ؛ وهم يستغفرون لِمَنْ فى الأرض(١) .

إذن : فقوله :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. (١٣) ﴾ [الرعد]

يُبيِّن لنا أن الملائكة تخاف على البشر من الرعد ؛ فَهُمْ مُكلَّفون بحمايتهم ، مع خوفهم من الله مهابة وإجلالاً .

ويقول رسول الله ﷺ فى الحديث الشريف :

« ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملَكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعْطِ مُنْفقاً خلَفاً . ويقول الآخر : اللهم أَعْطِ مُمْسكاً تلَفاً »(٢) .

وقد يظُنُّ ظَانٌّ أن هذه دعوة ضد المُمْسك ؛ ولكنى أقول : لماذا لا تأخذها على أنها دعوة خَيْر ؟ فالمُنفق قد أخذ ثواباً على ما أدَّى من حسنات ؛ أما المُمْسك فحين يبتليه الله بتلف بعضٍ من ماله ؛ ويصبر على ذلك ؛ فهو يأخذ جزاء الصبر .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) ﴾ [الرعد]

(١) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) ﴾ [غافر] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٠) . وقال النووى فى شرحه : « قال العلماء : هذا فى الإنفاق فى الطاعات ومكارم الأخلاق وعلى العيال والضيفان والصدقات ونحو ذلك ، بحيث لا يُذَم ولا يسمى سرفاً . والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا » .

ولا بُدَّ من وجود حَدَث أليم في الكون لينتبه هؤلاء الناس من غفلتهم ؛ وها هو ذا رسول الله ﷺ ؛ وقد جاءه اثنان من المعاندين الكبار أربد بن ربيعة ؛ أخو لبيد بن ربيعة ، وعامر بن الطُّفَيْل ؛ ليُجادلاه بهدف التلكُّؤ والبحث عن هَفْوة فيما يقوله أو عَجْزٍ في معرفته ، والمثل ما قاله مجادلون مثلهم ، وأورده القرآن الكريم :

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المؤمنون]

وكذلك استعجال بعض من المجادلين للعذاب[1] .

وجاء هذان الاثنان وقالا لرسول الله ﷺ : هل ربنا مصنوع من الحديد أم من النحاس ؟ وهما قد قالا ذلك لأنهما من عَبَدة الأصنام المصنوعة من الحجارة ، والأقوى من الحجارة هو الحديد أو النحاس ؛ فدعا رسول الله ﷺ ؛ فنزلت صاعقة ؛ فأحرقتهما[2] .

وإرسال الصواعق هنا آية قرآنية ، ولابد وأن تأتي آية كونية تصدقها ؛ وقد حدثتْ تلك الآية الكونية .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الرعد]

والجدال في الله أنواع متعددة ؛ جدال في ذاته ؛ وجدال في

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ص] . وقال أيضاً : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت] .

(٢) أورد هذه القصة القرطبي في تفسيره (٣٦٣١/٥ ، ٣٦٣٢) وعزاها لابن عباس ، وكذا ابن كثير في تفسيره (٥٠٦/٢) ، وأوردها الواحدي في أسباب النزول (ص ١٥٦) .

صفاته ، أو جدال فى الحسنة والسيئة ، وقد جادلوا أيضاً فى إنزال آية مادية[1] عليه ؛ لأنهم لم يكتفوا بالقرآن كآية ؛ على الرغم من أن القرآن آية معجزة ومن جنس ما برعوا فيه ، وهو اللغة .

وقد جادلوا أيضاً فى الرعد ؛ وقالوا : إن الرعد ليس له عَقْل ليُسبح ؛ والملائكة لا تكليفَ لها ؛ فكيف تُسبِّح ؟

ولكن الحق سبحانه قال : إنه قادر على أن يُرسل الصواعق ويصيب بها مَنْ يشاء ؛ فيأتى بالخير لمَنْ يشاء ؛ ويصيب بالضر مَنْ يشاء . فهل هُمْ يملكون كل الوقت لهذا الجدل ؛ بعد أن خلق الحق كل هذا الكون ؟

هل لديكم الوقت لكل تلك المُمَاراة بقصد الجدَل والعناد المذموم ؟

فالجدل فى حَدِّ ذاته قد يَحْسُن استخدامه وقد يُساء استخدامه ؛ والحق سبحانه قال لنا :

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت]

وقال أيضاً :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا[2] وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. (١) ﴾ [المجادلة]

---

(١) قال تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. (٩٣) ﴾ [الإسراء] .

(٢) نزلت هذه السورة سورة المجادلة فى شأن خولة بنت ثعلبة وكانت تشتكى زوجها أوس ابن الصامت أنها قالت لرسول الله ﷺ : « يا رسول الله ، أبلى شبابى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى » أى قال لها : أنت حرام علىَّ كظهر أمى . [انظر : أسباب النزول للواحدى ص ٢٣١ ، ٢٣٢] .

وهذا جَدَلٌ المراد منه الوصول إلى الحق .

ويُذيِّل الله آية سورة الرعد بقوله :

﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) ﴾ [الرعد]

ويقال : « محل فلان بفلان » أي : كَادَ له كيداً خفياً ومكر به ، والمحَال هو الكَيْد والتدبير الخفيّ ، ومَنْ يلجأون إليه من البشر هُم الضعاف الذين يعجزون عن مواجهة الخَصْم علانية ، فيُبيِّتون له بإخفاء وسائل الإيلام .

وهذا يحدث بين البشر وبعضهم البعض ؛ لأن البشر لا يعلمون الغيب ؛ لكن حين يكيد الله ؛ فلا أحدَ بقادر على كَيْده ، وهو القائل سبحانه :

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧) ﴾ [الطارق]

لأن كيد الله لا غالب له ؛ وهو كَيْد غير مفضوح لأحد ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

هُمْ أرادوا أن يُبيِّتوا لرسوله ﷺ ؛ وأرادوا قَتْله ؛ وجاءوا بشاب من كل قبيلة ليمسك سيفاً كي يتوزع دَمُه بين القبائل ، وترصدوا له المرصاد ؛ ولكن رسول الله ﷺ كانت تصاحبه العناية فخرج عليهم ملهماً قوله تعالى :

﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩) ﴾ [يس]

وبذلك أوضح لهم أنهم لن يستطيعوا دَفْع دعوة الإسلام ؛

لا مُجَابهة ومُجَاهرة ؛ ولا كَيْداً وتبييتاً ؛ حتى ولو استعنتُم بالجنِّ ؛ فالإنسان قد يمكر ويواجه ، وحين يفشل قد يحاول الاستعانة بقوة من جنس آخر له سلطان كسلطان الجن ، وحتى ذلك لم يفلح معه ﷺ ؛ فقد حاولوا بالسحر ؛ فكشف الله له بالرؤيا موقع وَضْع السحر[1] .

وذهب بعض من صحابته ليستخرجوا السِّحر من الموقع الذى حدده رسول الله لهم .

وهكذا أوضح لهم الحق سبحانه أن كل ما يفعلونه لن يَحِيق برسوله ﷺ ؛ فسبحانه :

﴿ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ .. (٢١) ﴾ [يوسف]

وهكذا كان الحق سبحانه وما زال وسيظل إلى أنْ يرث الأرضَ ومَنْ عليها ، وهو شديد المحال .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (١٤) ﴾

وسبحانه قد دعانا إلى أنْ نؤمن بإله واحد وهى دعوة حق ،

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سُحر النبى ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشىء وما يفعله ، حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال : أشعرت أن الله أفتانى فيما فيه شفائى ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلىّ ، فقال أحدهما للآخر : ما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب (أى : مسحور) قال : ومن طَبَّه ؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال : فيما ذا ؟ قال : فى مشط ومشاقة وجُفُّ طَلْعة ذكر . قال : فأين هو ؟ قال : فى بئر ذروان » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٨) .

والذين من دونه يدعون لإله غير حق . والضمير هنا قد يعود إلى الله ؛ فكأن الله قد دعا خَلْقه إلى كلمة الحق وهى « لا إله إلا الله » ، وهو سبحانه قد شهد بأنه لا إله إلا هو ؛ وشهدتْ الملائكة شهادةَ المشْهد ، وشَهِد بها أولو العلم شهادة الاستدلال[1] ؛ تلك هى دعوة الحق .

أو « له » أى : للإنسان الذى يدعو إلى الحق ، وحين يدعو الإنسان فهذا يدلُّ على أن أمراً قد خرج عن نطاق أسبابه ؛ لذلك يدعو مَنْ يعينه على هذا الأمر .

والدعاء لَوْنٌ من الطلب ، إلا أن الطلب يختلف باختلاف الطالب والمطلوب منه ؛ فإنْ كان الطالبُ أدنى من المطلوب منه لا يُقال له فعل أمر ؛ كقولك « اغفر لى يا رب» وهذا لا يقال له فعل أمر ؛ بل يقال له دعاء.

وهكذا نرى أنه إن كان فعل الأمر من الأدنى للأعلى ؛ لا نسميه فعْل أمر بل نسميه دعاءً ، والطالب الذكىّ هو مَنْ يلحظ أثناء الإعراب إنْ كان المطلوب هو من الأدنى إلى الأعلى ؛ فهو لا يقول « فعْل أمر » بل يقول « فعل دعاء » مثل قول العبد لله : يا رب اغفر لى ، وإنْ كان المطلوب من مُساوٍ ؛ فهو يقول « التماس » . وإنْ كان المطلوب قد صدر من الأعلى للأدنى فهو « فعل أمر » .

وحين يدعو الإنسان ربه ؛ فهذا يعنى أن أسبابَ العبد قد نفدتْ ؛ وهو يلجأ إلى مَنْ يعلو الكون ويملك كل الأسباب ، ولذلك فكُلٌّ منّا يدعو الله ؛ لأنه سبحانه القادر على إنفاذ مطلوب العباد ؛ ولا يُعْجِزه شىء .

ولكنْ إنْ دعوتَ مَنْ لا يستطيع ؛ فهذه دعوةٌ لا تنفع العبد ، وهم

---

(١) قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ [آل عمران] .